بين تيمورلنك وبايزيد

قصة الملك الأسير في قفص من حديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما زرت أنقرة عاصمة تركيا الجديدة منذ أعوام ، وتأملت المدينة الناشئة التي اختارها القدر لتكون مبعث حياة جديدة للأمة التركية ، تذكرت أن هذه الهضاب القفرة التي تحيط بالعاصمة التركية الجديدة كانت مسرحاً لحدث عظيم في تاريخ الدولة العثمانية ، وأنها إذا كانت اليوم مركز القوة والحياة في تركيا الجديدة ، فقد كانت ذات يوم مبعث الدمار والويل لدولة بني عثمان وكادت أن تكون قبراً لسلطانهم الناهض ومجدهم الفتي

كان ذلك في سنة ١٤٠٢ م ، حينما انقض تيمورلنك الفاتح التتري بجيوشه الجرارة على هضاب الأناضول كالسيل ، وحينما نشبت في هاتيك الهضاب الوعرة بينه وبين السلطان بايزيد الأول موقعة أنقرة الشهيرة التي سحقت فيها قوى آل عثمان وأسر ملكهم وأمراؤهم ، وكادت تمحى دولتهم من الوجود لولا أن تطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة ، وتوفي الفاتح التتري بعد ذلك بقليل ، وانهارت دعائم ذلك الصرح العسكري الهائل الذي شاده تيمور بغزواته وفتوحاته وانتصاراته العظيمة

وكان تيمور قد بدأ حياة الفتح بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً، وخرج من سمرقند عاصمة ملكه الناشيء يثخن في الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ويفتتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى ؛ فلم يمض على هذا البدء ثلاثون عاماً حتى استطاع أن يجتاح جميع الممالك الواقعة بين سمرقند والشام ، وبين قزوين والخليج الفارسي ، وأن يفتتح الهند وخوارزم وفارس والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وأن يبسط حكمه الشامل على تلك الممالك والأنحاء الشاسعة ، وأن يبلغ ذروة الظفر والسلطان الباذخ

وفي سنة ١٣٩٩ م خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة ؛ وكان قد نفذ إلى الهند قبل ذلك العام وأثخن في بسائطها وقواعدها ؛ واستولى على دهلي حاضرتها ، وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى ؛ واخترق تيمور بجيشه الزاخر فارس واتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ؛ وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بني عثمان ، إذ كانوا يغيرون عليها من وقت إلى آخر ؛ وكانت أملاك تيمور وبني عثمان تلتقي هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس ، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل ، واستولى عليها ؛ وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول ، وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها ، فلم يستطع شيئاً ؛ واخترق تيمور بلاد الأناضول ، وزحف نحو الشام وهي يومئذ ولاية مصرية ، بقصد افتتاحها ؛ ثم يفتتح مصر ؛ وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامي بأسره . واستولى تيمور على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب ، وانقض سيل التتار المخرب على ربوع الشام يثخن فيها ويحمل أمامه كل شيء . وزحف الغزاة على دمشق في أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ونزل بدمشق في جمادى الأولى ، واشتبك جند مصر مع جند الفاتح في معارك محلية كانت سجالاً ؛ ولكن السلطان اضطر أن يعود فجأة إلى القاهرة لأنباء مزعجة نميت إليه فترك دمشق لمصيرها ؛ واستولى تيمور على دمشق صلحاً ، ولكنها لم تنج من سفكه وعيثه ؛ على أنه لم يمكث طويلاً بالشام إذ وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد وحركاته ؛ فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالاً إلى بلاد الكرج ، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم »

* * *

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الشائقة التي تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر ، فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخره بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ويحذره من سطوته وبطشه ويتحداه في عبارات جافية مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التي تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر منه وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى

ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على و نه في الحرب والسياسة ، ويرميه بالعدوان والغدر ، ويرثى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ؛ وينوه بقوته ومقـدر جنده ، وعظيم استمداده للحرب والطعان . على أن ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذى اختتم به بايزيد رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فان لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثا ؛ وإن قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثا » . ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور[1] عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هـذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ثارت نفسه غضباً ، « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » ، فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحليلاته

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه الآخر ؛ فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ، ونفذ إلى مملكة الروم ، واستولى في طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهر هاليس ، وطوق مدينة أنقرة ؛ وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاها تيمور فى الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهي أرقام هائلة فى تلك العصور وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ، ويمتاز بالأخص بفرق الانكشارية الجريئة ؛ ولكن جيش التتار فضلا عن تفوقه العددى ، كان متفوقاً فى روحه المنوي . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤ [2] (أواخر يولية سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ؛ ولكن

(١) في كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور

(٢) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٠

سرعان ما دب الوهن إلى قواته ، وانسحب بعضها من الميدان باغراء تيمور ووعوده . وسرعان ما حلت النكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ؛ وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب العاصمة ؛ وطارد الغزاة العدو المهزوم ، واستولوا على كوتاهية ؛ ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بروصه عاصمة مملكة الروم فاستولى عليها ، وعاث فيها ونهب القصور الملكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطىء الأوربى حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه . وسحق ملك بنى عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين

وهنا تعرض للحرب صفحة فى تلك المأساة الشهيرة ، فان ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس [1] ؛ وهى رواية عربية تؤيدها الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة ؛ بيد أن رواية ابن عربشاه ليست فى حاجة إلى التأييد ، فهو مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط ، واستقى مادته فى سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد ، حيث قضى فى خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الانشاء ، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التى تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ؛ وإذن فليس فى روايته عن القفص الحديدى الذى سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسي معاصر ، هو شرف الدين على الذى كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً ، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان ابراهيم . وخلاصة هذه الرواية هو أن تيمور حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته ، نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه فى لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعده بصون حياته وشرفه ؛ فتأثر بايزيد لكرم خصمه ، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته ، وعانق ولده موسى الذى أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ؛ وأنزل السلطان وباقى الأمراء الأسرى منزلا حسناً . ولما وصلت زوج السلطان وهى الملكة رسبنا اليونانية وابنتها

(١) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٩

وباقي حريم السلطان ، حملن إليه مكرمات معززات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ؛ وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ، ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفي ، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم في المدفن الذي أقامه لنفسه في بروصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه ، فهي على ما يلوح رواية قَـصْرٍ أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين ، فيقول لنا إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لا ريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة ، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره في ركبه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمور على التشدد في معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد ، اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع في قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد(1) . ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب ، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن ؛ وقد كان ذلك من تيمور مبالغة في الانتقام من خصمه والتشفي منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء في مكاتبته(2) . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير ، فلم يمض على محنته بضعة أشهر حتى توفي في غمر الحسرات والأسى ، وكانت وفاته في مارس سنة ١٤٠٣ م

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته ؛ فلم يمض قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفي في شهر فبراير ١٤٠٥ ؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذي شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه

محمد عبد الله عنان

(1) جيبون : Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون

(2) ابن عربشاه ص ١٣٣

عبرة الســــيرة

بين يدي « العدد الممتاز » من الرسالة

للأستاذ علي الطنطاوي

إن مائة ألف قارىء في مشارق الأرض ومغاربها ، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحيي في نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التي نقف عندها في كل رأس عام هجري ، كما يقف المُصْحِر في واحة مخضرة ظليلة... ننشق منها عبير المجد ، ونتسمع أغاريد النصر ، ونجتلي في طلعتها طيف الأيام الباسمة التي كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حملت غارها الراية الاسلامية ، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت فخارها وجنت ثمارها البلاد الاسلامية ، وكان من حصادها هذه الحضارة التي نمت في أفيائها الانسانية ، وكانت إحدى الحضارات العالمية الثلاث بل كانت أسماها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق !

نقف كل عام لنحيي ذكرى الهجرة ونحييها ، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونتأمل ، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جو عال من العظمة والفضيلة والشرف ، نبقى فيه ما بقي المحرّم ، فإذا مر مر معه كل شيء : صوّحت الآمال ، وهجعت الذكريات ، وعدنا نتخبط في سواد اللجة ... لا نربح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز ، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه في الصحف والمجلات من القصص والقصائد والمقالات . وكثير مما يكتب في العدد الممتاز ، وبعض مما ينشر في الصحف والمجلات ، قيم ثمين ، نعتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الغنية الحافلة بثمرات القرائح الخصبة المرعة في الأعصار الطويلة ، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا في نهضتنا إذا نحن لم نحي هـذه الذكرى إحياء ، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود ، ونأخذ منها عبرة تنفعنا في نهضتنا ، وهذا ما أنشىء له العدد الممتاز ، وهذا ما يراد من إصداره .